العاشر او الحادي عشر ومنها ما نُقر نقراً بنقوش عجيبة . واستخرجوا ايضاً زجاجةً من البلُّور الصخري ثمينةً جدًّا لها سدادة هرميَّة الشكل وعلى الزجاجة خرصان ذهبيَّة واطواق جميلة

وبين هذه الآثار عدَّة تحف من بقايا اعمال الرومان عليها تصاوير من تاريخ ملوك رومية الوثنيين واخبارهم ودينهم وغير ذلك

ومجمل القول انَّ وجود هذه العاديَّات في خزانة قدس الاقداس يُعد من اغرب اكتشافات عصرنا والعلماء يبنون على وصفها الاماني الطيّبة لتعريف الاحداث التاريخيَّة والامور الصناعيَّة فضلًا عن مقامها في اعين المسيحيين كذخائر مقدَّسة تذكرهم باشرف الاسرار وتحيي في قلوبهم شواعر الدين وعواطف التقى

البَرْدي والآثار المخطوطة عليهِ

للاب لويس جلابرت اليسوعي

ذكرنا اخرًا في مقالتنا عن اكتشافات البهنساء في الفيُّوم (ص ٦٦٨) انَّ معظم تلك الآثار كان مكتوبًا على البردي فرغب الينا بعض القرَّاء ان نوقف لهذا النبات مقالة خصوصيَّة فنصفهُ لهم ونبين خواصهُ وطريقة استحضار القرطاس منهُ للكتابة مدَّة نحو ٤٠٠٠ سنة الى ان قام مقامهُ الورق المتخذ من القطن والخِرَق ثمَّ نلخص لهم اهمَّ الاكتشافات التي ظهرت لعالم الاحياء مكتوبةً على البردي بهمَّة الاثريين في هذه السنين الاخيرة . وهي آثار خطيرة اغنت العلوم بمضامينها العجيبة واماطت الستار عن معارف جليلة طالما بقيت دفينةً في قلب الارض ولعلَّ عصرنا هذا الجديد سوف يُدعى بسببها عصر البردي وآثارهِ القديمة

*

يفيدنا التاريخ كما تشهد عليهِ الآثار ان قدماء المصريين كانوا يكتبون على البرديّ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح وبقي عندهم سرًّا مكتومًا مئين من السنين الى ان بلغ خبرهُ اليونان فاخذوا يستعملونهُ ايضًا ويسطرون عليهِ منتجات افكارهم . ومن المرجح

بل من المؤكَّد انَّ الفينيقيين سبقوا اليونان الى معرفة ورق البردي في معاملاتهم مع المصريين وانَّهم اتخذوهُ لمعاملاتهم التجاريَّة قبل وضعهم للحروف الفينيقيَّة وكانوا يجدون في هذا الورق وسائل سهلة لضبط دفاترهم وفذالك حساباتهم ولاوراق الدفع والوصل والسندات وغير ذلك. لكنَّ الاثريين لم يجدوا حتَّى الان لا في الشام ولا في مصر بابيرًا واحدًا من احد تجار فينيقية الذين كانوا يرحلون الى قطر الفراعنة من صور وصيداء وارواد. ولعلَّ هذا النقص ينسدُّ عمَّا قليل كما انَّهم وقفوا على كتابات آراميَّة مسطَّرة على البرديّ يرتقي عهدها الى ما وراء عهد داريوس (اطلب المشرق ٦ : ٢٦١)

وما لا مشاحَّة فيهِ انَّ استحضار البردي للكتابة اتَّسع نطاقهُ اتِّساعًا عجيبًا بعد ابتناء الاسكندريَّة حتَّى ان اللغوي اللاتيني قارون ارتأى انَّ بابير البرديّ اختُرع في مصر على عهد الاسكندر وبناء الاسكندرية ولعلَّ الرومان لم يعرفوا البرديّ قبل ذلك الزمن فنسبوه اليهِ. ومن المقرَّر انَّ اهل الاسكندرية كانوا ينقلون ورق البرديّ فيبيعونهُ في اسواق رومية وجاء في تقليد الرومان انَّ البابير دخل لاوَّل مرَّة في رومة في ملك بطليموس المعروف بالمحب لامهِ (سنة ١٨١–١٤٦). ومهما كان من امر هذا التاريخ يسوغ القول بانَّ ظهور البرديّ في رومة وافق اوَّل آثار الرومانيين الادبيَّة اعني اواسط القرن الثالث قبل المسيح

*

وان سألت كيف يا ترى كان المصريون يستحضرون ورقهم وكيف وجدوا للبردي تلك المزيَّة ؟

اعلم انَّ البردي نبات من الفصيلة السعديَّة (Cypéracées) لهُ سوقٌ طويلة في غلظ عصا الرمح تبلغ الذراعين والثلاث الاذرع خضراء هشَّة وتنتهي بشبه مظلَّة زهريَّة ذات حوامل طويلة في اعلاها سنيبلات تنضمُّ على شكل سنبلة واحدة مستديرة ذات هدب ذهبي اللون وهو يُعرف بلسان العلم بالسعد الورقي (Cyperus papyrus Linnei) والعرب يدعونهُ ايضًا فافيرًا او بابيرًا وكان كثيرًا في وادي النيل وخصوصًا في مصر السفلى. ومنهُ في الشام عند بحيرة الحولة ومن هناك اتخذنا عدَّة جذور زرعناها في البستان اللاحق بمدرستنا وهنا صورة رسمناها عنهُ

اما اصطناع القرطاس او الكاغد من البردي فقد وصفهُ ابو العبَّاس النباتي وصفًا

حسناً تجدهُ في مفردات ابن بيطار قال (١ : ٨٧) : « وصنعة عمل القرطاس عند المصريين في الزمن الاوَّل كانوا يعمدون الى سوقهِ فيشقّونها بنصفين من اوَّلها الى آخرها ويقطعونها قطعاً ويوضح كل قطعةٍ منها الى لصق صاحبتها على لوح من خشب املس ويأخذون ثمر البشنين ويلزجونهُ بالماء ويضعون تلك اللزوجة على القطع ويتركونها حتى تجفّ جداً ويضربونها ضرباً لطيفاً بقطعة خشب تشبه الارزبة صغيرة حتى تستوي من الخشن فتصير في قوام الكاغد الصرف المتلي ».

وممَّا افادنا بلينيوس الطبيعي انهم كانوا في الغالب يجعلون البردي طبقتين كالسدى واللحمة فيصبح كالنسيج دون ان يشابكوا بين السدى واللحمة ثمَّ يضغطونهُ ويجفّفونهُ في الشمس. ثمَّ كانوا ينتقونهُ فما رأوهُ صالحاً نضّدوهُ رُزَماً رزماً كل رزمة عشرون ورقة على حسب اجناسهِ من فاخر ووسط ودون. اماً ما لم يصلح فكانوا يعيدون شغلهُ ثانيةً

لكنَّ الورق بعد تجفيفهِ كان خشناً يحتاج الى صقل ليليق بالكتابة فكانوا لذلك يتّخذون آلةً من الذهب او صدفاً بحريّاً فيصقلونهُ بهِ صقلاً وسطاً ثمَّ يطرقونهُ ويطلونهُ بدقيق الحنطة مدوفاً بقليل من الخلّ. وربما تجعّد بعد طليهِ فيطرقونهُ ثانية بمطرقة الى ان يصبح ساوياً

وكانوا يقسمون الورق اقساماً ويميّزونهُ على حسب نعومتهِ وحسب صفاقتهِ وحسب بياضهِ وصقلهِ فيبيعونهُ باسعار مختلفة على اختلاف خواصهِ (١ وكذلك كانوا يلحظون مقاديرهُ من طول وعرض

وافخر جنس من الورق عرفوهُ اوَّلاً الجنس المعروف بالقدسي لأنَّهم كانوا يعدّونهُ لكتابة المصاحف الدينيّة ثمَّ اتّخذهُ الملوك لمناشيرهم فدُعي منذ البطالسة بالورق الملكي وكان طولهُ ١١ اصبعاً اعني ٢٠ سنتيمترًا . ثمَّ خلفهُ في ايّام اوغسطس قيصر ورق دُعي باسمهِ القيصري كان طولهُ ١٣ اصبعاً اي ٢٤ سنتيمترًا ففضّلوهُ على الورق السابق وكان الورق القيصري ناعماً جدًّا حتَّى انَّ المداد كان يخرق الورق فاستبدلهُ الامبراطور كاوديوس بورق اصفق اتّخذوا للحمتهِ أليافاً امتن واصفق فجعلوا طول الورقة قدماً اعني

١) وهذا قول بلينيوس بالحرف : Spectantur in chartis tenuitas, densitas, candor, lævor.

٢٩ سنتمترًا بنيف بل زادوا في طولهِ ليجعلوهُ ذراعًا طولها ٤٤ سنتمترًا و٤ ملمترات لكنهم وجدوا في ذلك خللًا فاهملوهُ . وبقيت المراسلات تُكتب على الورق القيصري

ومن اجناس الورق الشائعة ورق ليئية دُعي كذلك باسم قرينة اوغسطس قيصر وكان في النعومة دون الورق القيصري . وكان اخشن منهما الورق العامّ يُقبل عليهِ العموم لقلّة ثمنهِ . وهذا الورق كان يصطنع في الاسكندريّة قريبًا من مرسحها ولذلك عُرف بورق المرسح (Charta amphitheatrica) وكان صغير الحجم طوله ٩ اصابع اعني اقلّ من ١٧ سنتمترًا . وكان عندهم ايضًا اصنافًا اخرى سافلة كالورق الصاعي (Charta Saïtica) كان يصطنعونهُ في صاع الحجر طولهُ ثمان اصابع ويُتّخذ من رذالة البردي ولا يطرقونهُ . والورق الطاني (Charta Tæneotica) كان يُصطنع قريبًا من الاسكندريّة من الياف البردي الجاسية القليلة المرونة . وورق البضاعة (Charta empo-retica) وهو دون الجميع

وكانوا اذا ارادوا ان يصنّفوا كتابًا واسعًا يعمدون الى احد اصناف الورق الناعمة المذكورة آنفًا فيلصقون الاوراق بعضها الى ان يبلغ طولها ١٦ قدمًا واكثر وبلغ بعضها عشرين بل ثلاثين قدمًا . ثمّ يلفونها ويدعونها لذلك مجلات او مدارج وكان للمصريين حذاقة في اصطناع هذه المجلات قيل انهم استحضروا مجلّة طولها ١٤٤ قدمًا . ثمّ جاراهم اليونان فتجاوزوا هذا الطول . وممّا وُجد من المدارج الطويلة لُفافة طولها ٤٢ قدمًا اتخذها بطلميوس محب اخيهِ لضبط مداخيلهِ وجرد غلات دولتهِ وهذا الاثر يُرى اليوم في مكتبة اكسفرد البُذليّة

وكانوا اذا ارادوا الكتابة على هذه المدارج الطويلة يسطّرونها ثم يقسمون الورق اقسامًا في الطول والعرض امّا الطول فانهم كانوا يكتبون الى حيث تُلصق ورقة بورقة فيتركون فضاء لصعوبة جري القلم عند موصل الورقتين ويستأنفون الكتابة تحت الفضاء . اما العرض فكانوا يجعلونهُ اعمدةً او احقالًا (σελίδες) يتركون بياضًا بين عمود وآخر . وعرض كل حقل كان يختلف فان كتبوا شعرًا جعلوهُ على عرض الشعر المسدَّس (hexamètre) وان كتبوا نثرًا اختاروا عرضًا يتراوح بين ثمانية وعشرة سنتمترات وان بقي في الورقة فسحة فارغة قطعوها ولفوا المدرج وان كان المدرج غير كافٍ أطالوهُ بالصاق ورقة جديدة في طرفهِ . وكانت كتابتهم على وجه الورقّ دون ظهرهِ لان الكتابة على

الوجه اوفق لجري القلم بخلاف الظهر الذي تصعب عليه الكتابة لخشونته . واكثر الآثار المكتشفة مكتوبة على الوجه فقط . الّا بعض المدارج فانها ترى مكتوبة على الوجهين وذلك اقتصاداً في الورق . واغلب ما يُعرف من هذه المخطوطات على الظهر انّما كان بيد نسّاخ آخرين وفي ازمنة مختلفة كما يلوح من الآثار الباقية الى زماننا . وقد لحظوا ان الكتابة التي على ظهر البردي اقرب عهداً من الكتابة المرقومة على وجهه

*

قلنا انّ ورق البردي شاع في اليونان وفي رومية وفي بقيّة البلاد لكنّ معامل الورق لم توجد الّا في مصر . وان ورد في التاريخ اسم الصحّاف انّما يدل ذلك على المتاجرة بالورق ليس على اصطناعه . فمن ذلك انهُ كان في رومية حانوت يُعرف بحانوت الصحافة (officina chartaria) لاحد الرومان اسمهُ فانيوس وعُرف الورق باسمه فدُعي بالورق الفانياني (charta Fanniana) الّا انّ هذا الصحاف كان يجتلب الورق من الاسكندريّة ثمّ يعالجهُ فيزيدهُ حسناً ونعومةً وكان طول ورقه عشر اصابع اي ١٨ سنتمتراً بنيّف

ولم يسمح الفراعنة لكل المصريين باستحضار الورق وانّما احتكرتهُ الدولة وكانوا لا يتخذون لاصطناعه الّا عبيد الملك . وبقي الامر كذلك في ايّام البطالسة . ولمّا فتح الرومان بلاد مصر بعد البطالسة جعلوا مزارع البردي واصطناع الورق ضماناً لبعض التجار كانوا يؤدّون في السنة مبالغ معلومة للدولة ويتاجرون بالصحافة على حسابهم الخاص واتّسعت اعمال الصحافة البرديّة الى حدّ بليغ باتساع المعاملات والفتوحات الرومانيّة . وكانت السنون التي يقل فيها نبات البردي تُعد كسنين القحط والمجاعة . اخبر بلينيوس الطبيعي انّ مزارع البردي أُصيبت في احدى السنين بآفة فكاد يحصل بسبب ذلك فتنة بين الرومان فجعلت الحكومة تسعى بالامر استدراكاً للشر

اخبر المؤرّخ ڤوبسكوس في تاريخ فرموس (Vopiscus, *Firmus*, 3, 2 ; cf. 5, 4) انّ فرموس هذا لمّا خرج لمحاربة اورليانوس قيصر قطع المواصلات بين مصر ورومة وخصّ بنفسه غلّات البردي . فكان مجمل ما حصل عليه بذلك كافياً لمؤونة عسكره فكان يفتخر بانهُ يقوت جنودهُ بمحصول « البردي والغراء » اي غراء الورق

وكانت حاجة الرومان الى البردي وورقهِ هذا مقدارها حتى انَّ دولتهم لم تشأ مطلقاً ان تدع الخواص يتجارون بها فبقيت الصحافة من امتيازات الحكومة تضمّنها من تريد وبقي ذلك الى أيام الدولة البوزنطية وكان في رومية مستودعات كبيرة تجعل فيهِ بضاعة الورق (Horrea chartaria) عند ورودها من مصر الى مينا اوستية فرومية. وكان لهذه المستودعات دواوين لضبط حساباتهم (ratio chartaria) وكان باعة الورق (Χαρτοπῶλαι) يتسوّقون ورقهم لدى خزنة هذه المستودعات بالاجمال ثمَّ يصرّفونها عند زبائنهم بربح معتدل. على انَّ القدماء لم يفيدونا علماً شافياً عن ثمن هذا الورق فلا يمكنّا القطع بذلك وهذا غاية ما امكنّا الحصول عليهِ من هذا القبيل

كانت ورقة البردي سنة ٤٠٧ قبل المسيح تُباع في اثنة درهماً يونانياً وفلسين اعني فرنكاً وربع من دراهمنا ولما كانت قيمة الفضة في ذلك الزمان اغلى منها اليوم اربعة اضعاف فيسوغ القول انَّ الورقة كانت تساوي خمسة فرنكات. لكنَّ الورق حينئذ كان عزيز الوجود لا يتخذه الّا الاغنياء. وقد رخص نوعاً في القرن الرابع والثالث ومع هذا كان لا يزال غالياً للعموم والدليل عليهِ انَّ في مصر عينها وجدت عدة سندات ووصولات واوراق تجارية مكتوبة على الخزف (ὄστρακα) فلولا غلاء ورق البردي لما فضّلوا عليهِ الخزف. ومع هذا قد ذكر ديوستان الخطيب ورقة وصل لم يتجاوز ثمنها ثمان بارات او اربع سنتيات ولعلّها كانت من الورق الدون. وما لا ينكر انَّ ثمن الورق هبط شيئاً فشيئاً مع شيوعهِ وكثرة استعمالهِ حتى امكن الفقراء انفسهم استعمالهُ. ومما يشهد على كثرتهِ الالوف المؤلفة من قراطيس البردي التي اكتشفوها في الزمن الاخير وهي من تواريخ واعصار مختلفة

*

ليس وجود آثار البابير بقديم فانَّ العلاّمة البندكتي مُنفوكون سنة ١٧٠٨ اعلن بانهُ لم يشاهد قطّ ورقة من البردي. والمدارج الاولى التي وُجدت منهُ حدث اكتشافها في الخربة هركولانوم سنة ١٧٥٢ لكنها كانت في حالة من الفساد يرثى لها فلم يمكن العلماء ان يفكّوا اسرارها لسوء حالتها ولما اصابها من آثار الحريق الذي عمل فيها. وانما تحققوا انَّ مضمونها من الآداب اليونانية

وفي سنة ١٧٧٨ وجد بعض الفلاحين في جهات الفيوم نحو ٤٠ او ٦٠ مدرجاً من اوراق البابير فتلف اكثرها في ايديهم ولم يبلغ منها الى اوربا الّا دَرْجٌ واحد ابتاعهُ الكردينال ستيفانو بورجيا . وفي سنة ١٨٢٠ حدث اكتشاف جديد من مدارج البردي في هيكل في سيرابيس منف اقتسمتها متاحف باريس ولندن وليدن ورومية ودرسدة . وسنة ١٨٢١ ابتاع الانكليزي بانكس (W. J. Bankes) مدرجاً فيهِ آخر قصائد الياذة اوميروس . وفي السنين ١٨٤٧ و١٨٥٦ وُجدت مقاطيع بردية شتّى اكتشفوا بينها ثلاث خطب لكاتب يوناني اسمهُ هيبريد (Hypéride) كانت فُقدت اعمالهُ ثمّ وُجد له شذرات أُخرى

وانقطع خبر قراطيس البردي مدّة الى السنة ١٨٧٧ حيث وُجدت في اخربة مدينة ارسينوية في مقاطعة الفيوم خزانة كبيرة اقتنى معظمها الارشيدوك النمساوي رَينر واقتسمت الباقي مكاتب باريس ولندن واكسفرد وبرلين . وكان اغلب هذه الاوراق من عهد البوزنطيين . ثمّ تكرّرت بعد ذلك اكتشافات مخطوطات البردي في اشمونين (Hermopolis) وفي نواحي تبة وفي امكنة شتّى اشتهر بينها اكتشاف سنة ١٨٩٢ لكثرة ما ظهر من الآثار الخطّية في جزيرة سكنوبا (Socnopaiou Nesos) وكان تاريخ هذه العاديّات يتواصل من اوائل القرن الاوّل الى اواسط القرن الثالث بعد المسيح

ثمّ اكتشفوا في حفريّات حديثة في هذه السنين العشر الاخيرة عدّة مخطوطات على البابير يرتقي عهدها الى دولة البطالسة . ومجمل القول انّ الآثار الخطّية على البردي المكتشفة الى يومنا هذا ترتقي الى القرن الثالث قبل المسيح ثمّ تتوالى قرناً بعد قرن الى القرن السابع او الثامن من تاريخ الميلاد حيث ظهر الورق المصطنع من الانسجة والخرق فشاع وبشيوعهِ انسي البردي وابطل استعمالهُ . (لهُ بقيّة)

